(3)

التعميم

إن غياب التفاصيل واختزال الإسلام في كلمات عامة دون تفصيل وتوضيح إحدى إشكاليات الخطاب الدعوي في التواصل مع الجمهور، فيقدم الخطاب الرسمي في بعض صوره تعميمات تخلو من التحديد، ينطلق منها خطاب الجماعات الدينية بعد ذلك لتوجهها كيف تشاء بما يحقق أغراضها، فمثلا حين يقول الداعية: «علينا أن نجاهد من أجل الإسلام، وأن نحمي ديننا»، «نموت من أجل الإسلام» ثم يسكت عند هذه العمومية، دون أن يحدد ماذا يريد؟ وكيف يكون ذلك؟ يأتي دعاة الجماعات ليكملوا ما بدأه الدعاة أو الوعاظ الرسميين، فيقدم كل منهم جماعته وفكره بوصفه الإسلام، وتصبح جماعته كأنها الإسلام الذي دعا إليه الخطيب أو الداعية.

و إذا كانت الدّقة أحد المقاصد المراد الوصول إليها في خطابنا الديني فإن ذلك مرهون بمدى قدرتنا على إعادة مناقشة وتجزئة الأفكار بعيدا عن التعميمات بما تحمله من لبس، وتحديد معاني الكلمات ذات الدلالات الاحتمالية المتعددة، وتحرى السياق الذي خرجت فيه، والمعاني الضمنية التي قد تحملها.

ومن أبرز العوامل المؤدية إلى التعميم في الخطاب الديني الرسمي اللغة الإنشائية الفضفاضة في عصر اتسمت فيه اللغة بالعلمية والدقة، وبات من الضروري مواكبة لغة خطابنا الديني لمقتضيات هذا العصر، فالضبط العلمي وتحرى الدقة في استدعاء الشواهد الدينية أصبح مطلبا ملحا أمر يفرضه

عصر السماوات المفتوحة، واكتساح ثورة المعلومات لكل الحدود، فتعزيز الثقة في الخطاب الوعظي الرسمي يحتاج إلى علمية في العرض والاستشهاد وإحداث انسجام حقيقي بين العقل والنقل في مادة خطابنا الدعوي، وتجنب التعميم الذى يصيب عقل الجمهور بنوع من التسطيح فيصدرون الأحكام بالحسن أو القبح تبعا لانطباعاتهم وانفعالاتهم وليس وفق ما توفر لديهم من معلومات وحقائق.

فالخطاب الديني مطالَب بأن ينتقل من اللغة المادحة أو المُقبِّحة فحسب إلى لغة خبرية تحمل أحكاما شارحة لماذا هذا مذموم أو مقبول؟

للخروج من التعميم نحتاج إلى إعادة النظر في العناوين ذات الإطلاقات العامة، وتخصيصها في عشرات العناوين الجزئية فمثلا الجهاد من الخطأ تناوله على إطلاقه حتى يتمكن العقل من تصور معانيه المختلفة وأحكامه المتنوعة، فالجهاد يختلف دلالته باختلاف أنواعه، واختلاف الزمن التاريخي والمحيط البيئي، واختلاف الجمهور المتحدث إليه، واختلاف الأسئلة المثارة حوله في المجتمع، ينبغي أن تكون مثل هذه الأمور نصب أعين من يكتب أو يتحدث عن الجهاد، فلا يسوق حكما أو قولا عاما فيه بل يُفصِّل وينوّع فيه على نحو يستقصى كل جوانبه.

فمن مظاهر التعميم في الخطاب الديني أنه تُطلق كلمات الكفر والجهاد والحق والخير والولاء والبراء والعدوان والحرية والمساواة دون توضيح كافٍ فتعدو مفردات بلا ملامح مُعرفة ومميزة في ذهن المتلقى بما يساعده على فهمها، فالجمهور وحده هو من يقع عليهم عبء تلمس معالم حقيقة تلك الكلمات، فيجدها البعض عند دعاة الجماعات ذوي الأصوات الصارخة

المنتحبة بالبكاء على الإسلام الضائع من المجتمعات، ويتفاوت تأثُّر الشباب بخطاب جماعة بعينها دون أخرى حسب ما يوفره له الواقع، وحسب تفوق جماعة على أخرى في التواصل مع المجتمع، وهذا يُفسر قبول البعض بتلك الجماعة دون غيرها.

وقريب من خطاب التطرف في عزل النص القرآني أو القول المأثور عن سياقه الذي جاء فيه، للاستشهاد به في قضايا الحكم ووجوب الاقتتال تحت مسمى الجهاد يأتي الخطاب الوعظي الرسمي مقتطعا النص أحيانا من سياقه القرآني؛ ليصبح نصًّا عامًا؛ لخدمة توجه سياسي أو أيديولوجي، وأحيانا يضع النصوص في غير أهلها فلا يُراعي الواقع الخاص لهذا المجتمع أو ذاك.. «فهذا واعظ يدخل إحدى القرى البائسة ليحدث أهلها المستوحشين عن آفات الرياء! وهذا آخر يخطب في المدن عن جرائم القتل والأخذ بالثأر.. وفي الذهن الفقير تتمدد المعلومات القليلة وتصبح كل شيء.

سمعت رجلا يُجرى على لسانه هذه الكلمات لابن عطاء الله السكندري: «سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار»، «ادفن نفسك في أرض الخمول» فكرهت هذا الكلام وأنكرت سياقه. إن الجملة الأولى تقال لفرد من الناس ملكه جنون القوة، واستحوذ عليه الاعتداد بالنفس، فبنى خطته على أنه إذا أراد فعل، وإذا عزم فعلى الْمَرَدَة والأملاك جميعا أن يذعنوا له. ومن ثم فهو لا يتصور أن يردع همّه أو يغلبه أحد في الأرض والسماء على أمره. هذه الكلمة حق داخل هذا النطاق وحده. وهي خارج هذا النطاق لا عمل لها ولا مكان... وسوء الاسشهاد كما يقع في هذه الحِكم المجلوبة كَرْها، يقع في كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ فترى بليد الفهم من هؤلاء يجئ بالأثر

هـو في نفسه حق ولكنه فيما ضُرب له وقُصّ من أجله بعيد بعيد.. وعندي أن هذا ضرب من تحريف الكلم عن مواضعه. أرأيت إذا انطلق رجل طيب أمين إلى قوم أغرار يحرص على وعظهم و يتعشق هدايتهم أيليق أن تثنيه عن مراده بقـول الله «إنك لا تهـدى من أحببت ولكـن الله يهدى من يشـاء» إن سوْق الآية هنا خطأ، فمجال الآيـة الوحيد هو المجال الذي نزلت فيه، أعنى تسلية الداعي الذي تعب ونصب وهو يحاول إرشاد شخص عنيد دون جدوى.» [1]

ومـن إشـكاليات الخطاب الإسلامي المعاصر التـي أدخلته في علاقة غير فاعلـة في حـاضر الأمة قصـوره عن التواصل مـع تراثها، مكتفيـا بقراءات وسيطـة انتقائيـة موجِّهة، فالصلة منقطعـة بين بعض القائمـين على الخطاب الدعـوي والتراث المعرفي للأمة مكتفين بالنقل عن وسطاء و إنزال دراساتهم حـول التراث منزلة الـتراث نفسه، فيعتمـد هؤلاء على النقـل السماعي عبر الوسائط السمعية، أو الكُتيبات المختصرة، فإذا بالواعظ يقف عندها، يرى الـتراث بعينيّ غـيره، فيورثه طول البعـد مزيدا من الجفـوة وعجزا عن فهم تراثـه، ولا يمارس فعل القراءة المأمور به في قوله تعالى «اقرأ باسم ربك الذي خلـق» فيجعل من القراءة ترديدا وليس فهما، وهـذا يتنافى مع حقيقة الفعل «اقـرأ» فالقراءة من حيث الدلالة تقتضي الفهم والوعي والإدراك فإن كلمة «قرأت» عندما يسمعها الإنسان العادي أو يقولها، تعني: أن رسالة جاءته أو كتابـا وقع بين يديه فنظر فيه، وفهم المقصـود منه.. فقراءة التراث المراد بها قراءة واعية فاهمة.

(1) محمد الغزالي، هموم داعية، ص73. دار نهضة مصر. القاهرة. الطبعة الرابعة عشرة. نوفمبر. 2012م.

الخطـاب الديني الرسمي مطالب في تعامله مـع التراث أن يُفسح لتعددية اجتهاديـة وفكرية، كان لها أكـبر الأثر في ازدهار الفكـر الإسلامي قديما متمثلا في خطاب مدرسة علماء الكلام، ومدرسة الفلاسفة من أمثال: ابن سينا وابن رشد والفارابي، والمدرسة الفقهية متمثلة في أئمة الاجتهاد في القرن الرابع الهجـري قبيل أواخـر القرن الثالث عشر الميلادي، ثـم سرعان ما تراجعت كل الخطابات وبقي الخطـاب الفقهي متجمدا في المذاهب الأربعة الشهيرة، وهذا ما وصفه القدامى والمحدثون من المحافظين أنفسهم[1] بعصور الجمود والتراجـع؛ مفسِّرين ذلك بالتقليد وغيـاب الإعمال العقلي على حد قول أحد القدامـى: «إن الذي أدخل كثيرا من الناس في التقليـد نقص العقول، ودناءة الهمـم، اقتصروا على النقل عمن تقدم فقـط، وانصرفت همتهم لشرح كتب المتقدمـين وتفهمها ثم اختصارها، وفكـرة الاختصار ثم التباري فيه مع جمع الفـروع الكثيرة في اللفـظ القليل هو الذي أوجب الهـرم، وأفسد الفقه، بل العلـوم كلها، إذ صاروا قُرَّاء كتب لا محصلي علوم، ثم في الأخير قصروا عن الشرح، واقتـصروا على التحشية والقشور، ومن اشـتغل بالحواشي ما حوى شيء»[2] ومثل هذا نجده في دراساتنا الدعوية المعاصرة التي اختزلت القرآن في كتـاب أحكام فقهيـة، واختزلت الأحكام في اجتهـاد الأئمة، واختصرت اجتهـاد الأئمـة في حلال وحرام، فلـم نخرج عن تناول القـرآن الكريم من

(1) ينظر: د ناصر الطريفي. تاريخ الفقه الإسلامي: ص185:194. ط. مكتبة التوبة. الرياض. الطبعة الثانية. 1418هـ - 1997م

(2) ينظر: محمد بن الحسن الثعالبي الجعفري الفاسي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي. ج2. ص106. ط. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى. 1416هـ - 1995م.

الناحيــة الفقهية التي لا تزيد آيــات الأحكام فيه عن خمسمائة آية بين أكثر مــن ست آلاف آية قرآنية، أي أقل مــن 10 % من القرآن، والبقية التي تزيد عن 90 % ليس لها حضور في الخطاب الديني إلا في إطار سرد وعظي مُجتزِئ، وتغيب النظرة الكلية التي تعمّق الدرس القرآني وتثرى الخطاب الديني.